بيان اليوم
السبت - الاثنين
25-27 أكتوبر 2014
العدد: 7359
تشكيل

عيون يقظة ترصد النور الطبيعي المغربي قابضة على لحظاته الهاربة بأنامل رشيقة

الفنانة السويدية سوزان ستراندانجر

■ عبد الله الشيخ *

سوزان ستراندانجر أمام مجموعة من لوحاتها

شاركت الفنانة التشكيلية مؤخرا بجديد أعمالها الإبداعية ضمن فعاليات البينالي الدولي للهندسة المعمارية بمدينة البندقية الإيطالية بمبادرة من جمعية البحث الثقافي والبيئي وبتعاون مع جمعية لوكولونيت الإيطالية. في ما يلي تأملات حول تجربتها الفنية التي تزاوج بين البحث و التجريب.

خطت بيد الغربة رسما موشوما في كتاب هذا العالم العجائبي: رسم ملتبس المعاني ، يرمز تارة إلى لا شيء و تارة أخرى إلى أشياء كثيرة. إنها الفنانة السويدية سوزان ستراندانجر التي عرضت مؤخرا بشكل فردي برواق متحف أكادير للتراث الأمازيغي تحت عنوان "سحر المغرب". تحتفي أعمالها التشكيلية ببلاغة اللون و الشكل، مستعيدة الأزمنة المفقودة للمغرب عبر فضاءات تصويرية تزاوج بين التشخيص التعبيري، و التجريد الغنائي. ها هي تزهو بالإرث الحضاري المشترك بثقة حازمة ، و خطى حثيثة دونما جلبة أو عجعجة. تراها متماهية مع عوالمها الداخلية التي تؤثث حالاتنا الروحية على امتداد مساحات إيحائية تدعونا للسفر، و ارتياد مجاهل الذات. نحلق بدون أجنحة ، علنا نرقى بأحاسيسنا السماوية إلى مدارك الروح. تحدق الفنانة سوزان إلى النور الطبيعي المغربي بعيون يقظة ، و تقبض على لحظاته الهاربة بأنامل وديعة ،منصتة لنغمات الروح من وراء ضجيج الحضارة المدنية،و جلبة سكانها العميان بصريا. تركت العاصمة ستوكهولم، و فضلت الإقامة بعاصمة سوس العالمة (أكادير)، رافعة لوحاتها الإنسانية إلى صناع حقيقة الجمال، و الخير، والحق، و كأنها تردد بلغة الحالمين مقولة جبران خليل جبران: "اعفني من مآتي السياسة، و أخبار السلطة، لأن الأرض كلها وطني و جميع البشر مواطني" (دمعة و ابتسامة). ألوان المغرب الناصعة والبهية فتحت بصيرتها، و طيبوبة المغاربة جلت نظرها الداخلي، و الرأسمال الطبيعي علمها لغة القلوب و العقول معا. عندما تسألها عن سر الجمال البصري، تجيبك بلكنتها الواثقة : " إن مملكة الجمال كمدينة الخيال. إنها عرس يخفر بابه مارد جبار، فلن يدخله إلا من لبس ثياب العرس، أقصد ثياب المعرفة الجمالية." أهدت سوزان كل عوالمها الفنية التي أنجزتها بالمغرب إلى الأرواح المتحررة من قيود المادة، معتبرة الإبداع مجازا بصريا يعانق الحقيقة و يشاكسها بشغب و حكمة. إنها حقائق من سيرتها الذاتية التي انطبعت بمحطاتها المهنية في صفوف القضاء السويدي ، حيث تأثرت بتوجيهات أمها الصارمة. كما أنها تشربت بمعين التجربة الفنية التي ارتادها أبوها بروية و تبصر. فبين عالمي الأم و الأب، تفتقت أزهار موهبتها الإبداعية على مسرح الأحلام، فكان الإبداع التشكيلي بكل مفرداته البصرية الكبرى (أجواء المحاماة، الآني و الآتي.

هكذا تفصح أبحاثها الإبداعية عن هوس شديد بالحقائق الذاتية التي تبين أسرار النفوس، و تذكي شرارات التحليل و التأويل. فعلى مسرح أحلامها المذكورة، رأت سوزان جمال المغرب عريسا، و طبيعته الحية عروسا، و الإقامة الاختيارية به ليلة زفاف متجددة. إنها أبت إلا أن تقدم ما تبقى من سجل حياتها إلى هذا البلد المتوسطي الذي احتضن أول معارضها خارج العواصم الغربية ، و هو ثاني نسمة من عواصف مذكراتها اليومية. فالمغرب من منظورها الجمالي روح نبيلة تحب النسمات و تسير مع العواصف!

إن الفن، كما تتصوره الفنانة سوزان، ديانة باطنية، و حياة مقدسة. أليس الجمال دين الحكماء كما ورد على لسان شاعر هندي؟ أليس الجمال، أيضا، نصيب المتأملين بتعبير جبران خليل جبران؟ ألا المجازية، يهيم المتلقي ، و يصغي لأنغام الذات المعزوفة على قيثارة الروح. تقول في هذا السياق:" لقد أعطاني المغرب عينا ترى الجمال. فأنا غنية بسعادتي الداخلية، لا بثروتي الدنيوية. فما أكثر الفقراء بأموالهم، و ما أقل الأغنياء بسعادتهم." تذكرت حينها قول جبران خليل جبران :"السعادة صبية تولد، و تحيا في أعماق القلب ، و لن تجيء إليه من محيطه".

سوزان ، قوة هادئة و هادرة في الآن ذاته. فنانة تعيد بناء عوالمنا الداخلية و الخارجية معا موغلة في متاهة الأزمنة المفقودة، و جاعلة من المكان البطل الإشكالي للوحاتها الفنية. لكل مؤشر بصري سطوته في التاريخ الخاص، فهو دعوة مجازية للبحث في الماضي، و التدرج من المرئي إلى اللامرئي. لكل مؤشر بصري، أيضا، حكايته التي تسامر وحشتنا و تناجي نفسنا. تبوح سوزان في ضيافة أعمالها أن نتعلم النور من الظلمة، و المعرفة من الجهل، و الجمال من القبح.".

لقد عرفت سوزان كيف تسير إلى الأمام دون اكتراث و مواربة. فهي لا تعرف الوقوف البتة، لأن الأمام بالنسبة لها طريق البحث عن الكمال النسبي. ذكرتني حكمة سوزان بمقولة :" النفس تجني من العوسج تينا بحكمتها، و القلب يستمد من الظلمة نورا بمحبته".

ليست أعمال سوزان مجرد محاولات تجريبية تراهن على الشكل و تتوق إلى الجمال الظاهر. إنها، على عكس ذلك ، رسائل معرفية و عرفانية معا، تهجس ببعض أسرار الحياة التي تعرج بنا من مكان إلى مكان، و تنتقل بنا من محيط إلى آخر ، و نحن لا نرى إلا حقائقنا الخاصة ، و لا نسمع إلا أصواتنا التي تسكن جوارحنا.

لعمري إنها حياة تتوزع بين الحقيقة و الخيال. حياة انبجست من ظلال و أنوار تمجيد النفس التي انعتقت من ربقة المادة.

لوحات سوزان مهداة إلى محبي الحكمة، السالكين سبل الانفتاح و التبادل، لا سبل الادعاء و الجحود. تتمثل في لوحاتها إحساسا عميقا بالمكان و الزمان: المكان كروح للطبيعة الأولى، و الزمان كحيز أقوى من الدهر.

مرهفة و شاعرة بطبعها ، هي سوزان. امرأة حساسة تطلق العنان لتلقائيتها المفرطة في الفيض. إنها راحلة تلقي نظراتها باستمرار جهة شركاء حياتها، من صناع الجمال ، و مهندسي الروح.

أصبحت إقامتها الاختيارية بالمغرب مطلع قصيدة حياتها، و الفصل المحوري من سيرتها المعنوية التي تروم الكمال، و تعلم أن الكمال هو اللانهاية.

أمنت سوزان من خلال مصاحبتها للريشة و القماش بأن حكمة الفن البصري ابنة المحبة و الجمال: حكمة تنبع من داخل النفوس العطشى.

هكذا، تبدو فضاءات لوحاتها بعيدة و قريبة ، منظورة و محجوبة. فهي عوالم سحرية تتعالى على الحياة الترابية، و تناهض المجاعة الروحية. عوالم ترجع إلى أمهات مصادرها بحكم الطبيعة ، جاعلة من كل لوحة غيض من فيض، و شذرة معنوية أنارها الحب الداخلي ، و أفعمها الشوق إلى الأصل.

طوبى للمغرب فقد جعل هذه الفنانة على غرار عدة فنانين عالميين(ماتيس، دولاكروا، دوستايل، ماجوريل...الخ) تفكر بضمير المفرد بصيغة الجمع. فسحر طبيعته ، و سخاء سكانه نصفها الجميل، وعينها الثالثة التي فقدتها داخل كوا... العولمة الموحشة. يحيل إلى ... تهمس في أذننا منشدة : ... جمال المغرب، و ما أصغرنا. إنه ... الحياة!